اليقظة العقلية في أواخر زمن الجاهلية
" زيد بن عمرو بن نُفيل نموذجاً "

د. علي عبدالرحمن الفيتوري – كلية الآداب – جامعة مصراتة

المقدّمة :

لعلَّ مزمع الكتابة عن ذاك العصر، يجد نفسه أمام تلك الصورة التي نقلها إلينا ابن رشيق القيرواني إذ قال : " وقول عنترة : هل غادر الشعراء من متردَّم، يدل على أنه يعدُّ نفسه مُحدَثاً قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه، ولم يغادروا له شيئاً"[1].

ولكننا إذا أمعنَّا النظر في كثير مما كُتب، نجد بين ثناياه ما يقبل الزيادة أو التعديل أو التمحيص أو النظر من زاوية أخرى قد تزيد المكتوب وضوحاً أو تكسبه بريقاً يشدّ الناظرين أو تُزيل لبساً قد يؤرّق بعض المتأملين.

والمعوّل عليه في هذا الموضوع، الابتعاد عن تلك النظرات العجلى الموسّعة، واستبدالها بالنظرة العميقة الفاحصة، حتى لا نضلّ المنشود في هذه الوجهة، فضخامة ذاك المخزون الثقافي والحضاري وعمره المديد الذي جعل اللغة العربية أقدم لغة حيّة على وجه الأرض،[2] يحتّم على الدارس الدقّة فيما يُقيّد، والحذر من المزالق والعثرات، ومما ألزمني تحبير هذه الصفحات، إحساسي بحاجة المطّلع في هذا العصر إلى الموجز المفيد، ولاسيما فيما كثر فيه الحديث وتفرقت فيه السبل، فإنه من الواجب اليوم – بعد أن تيسر الوصول إلى المعلومة في مصادرها – أن نزيل القشرة عن اللباب ليكون ذاك الموروث أطيب مذاقاً، والذي ليس منه بدٌ في هذا البحث، هو الوقوف على تلك الفترة الجاهلية، ثم التعريف بمن أتخذ نموذجاً، وإيضاح تلك اليقظة العقلية في تلك الفترة الجاهلية، بطريقة تدريجية، مستفيدين من إشارة الدكتور أحمد الحوفي لهذه اليقظة في تسبيبه لضعف الوثنية في أواخر عصر الجاهلية[3]. متخذين المنهج الوصفي التحليلي سبيلاً لهذه الدراسة مع الاستعانة بما يفيد في هذا العمل من المناهج الأخرى.

([1]) العمدة، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، ط4، 1972، جـ1، ص91.

([2]) ينظر: مجلة اللسان المبين، كلية الآداب جامعة طرابلس، العدد السابع 2012م ، ص367.

([3]) ينظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي– أحمد الحوفي، نهضة مصر القاهرة ، بدون ط.ت، ص377.

الجاهلية : مدلولها وزمنها وحياة أهلها :

مدلولها : الجاهلية زمن الفترة ولا إسلام، وهي الحال التي كانت عليها العربُ قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدّين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبّر وغير ذلك،[1] والحديث عن تلك الفترة كثير، والمتأمل في ذلك يلحظ الشيء وضده ، فإذا وقف على ذاك الشعر المنقول إلينا من أبناء الجاهلية ، وتراءى له ما فيه من روائع القول وجميل الخصال، أكبر تلك الفترة وأعجب بما فيها من مروءة وشجاعة وأنفة واعتزاز، ولا سيما إذا التمس لهم العذر لكونهم معوزين إلى الدّين الحق الذي يهذّب النفوس وتطمئن به القلوب.

وإذا نظر المتأمل في الكثير مما كُتب عن الجاهلية يرى توسعاً في ذمّها وإمعاناً في انتقاصها[2].

ولعل السبب في ذلك ارتباط المقارنة بين الجاهلية والإسلام كارتباط المفارقة بين الليل والنهار فلا ينكر عاقل روعة بزوغ الفجر وإشراقة الشمس، وما في ذلك من طمأنينة وأمان، ولكنه من التعسّف أن نرى الليل كلّه أهوالاً وأوجاعاً فقد أقرّ الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير من العادات والقيم الجاهلية فإكرام الضيف مثلاً أكّده الإسلام وحبب إليه ومن ذلك ما رواه أبوهريرة حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جارهُ ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[3].

وأظنه من الطبيعي أن يكون العتب أشد على من أدرك اليقين وتخلّق بأخلاق من لم يدركه ، وكذلك من عرف الحكم بالقسط وعاد إلى الزيغ ..

ولعل ما ورد في التنزيل الحكيم من ذكر للجاهلية يجعل صاحب النظرة العجلى أكثر ميلاً نحو النيل من تلك الفترة وانتقاص ما كان فيها، فقد وردت لفظة الجاهلية في أربع آيات كريمة هي :

1- قال تعالى: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [4]، "يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمّتهم أنفسهم يقول : هم المنافقون لا همَّ لهم غير أنفسهم فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى يظنون بالله

([1]) ينظر: لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر بيروت ، ط3 ، 1994، مادة (جهل).

([2]) ينظر: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، يحيى الجبوري ، جامعة قاريونس بنغازي ط6، 1993، ص17.

([3]) صحيح البخاري تحقيق محمد الناصر ، دار طوق النجاة ط1 ، 1422هـ، جـ8، ص11.

([4]) آل عمران الآية (154).

الظنون الكاذبة ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيّه صلّى الله عليه وسلم ومحسبةً منهم أن الله خاذل نبيّه"[1].

فتلك الطائفة من المنافقين لم تطمئن قلوبهم إلى قدر الله وحكمه فهم في ظنهم السيء مثل ظن الجاهلية الذين لم يأتهم الهدى ولم يبعث الله فيهم رسولاً[2].

2- قال تعالى : ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[3] وإذا نظرنا إلى أحكام الجاهلية نجدها "حكم البشر للبشر وعبودية البشر للبشر "[4] ومما لا شكَّ فيه أن الانصراف عن أحكام الله والعودة إلى أحكام البشر أمر ينافي الإيمان الحق وفيه زيغ عن العدالة الربّانية أما ما كان معمولاً به في الجاهلية ثم أقرّه الإسلام فإنه يصير من أحكام الله ولا يُنسب إلى الجاهلية ومن ذلك قصة أُحيحة بن الجُلاح في عمّه " هي كانت سبب ألاَّ يرث قاتلٌ، ثم ثبَّت ذلك الإسلام كما ثبَّتَ كثيراً من نوازلِ الجاهلية"[5].

3- قال تعالى : ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**﴾[6] والتبرج أن تتمشَّى المرأة بين الرّجال[7].

وقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إجابة عن تساؤل عمر بن الخطاب رضي الله عنه "وهل كانت من أولى إلا ولها آخرة ؟ "[8] وتعقيب عمر رضى الله عنه بقوله "صدقت"[9] يبين أنَّ هذه الصفة التي لا تليق بنساء النبي صلى الله عليه وسلم كانت في جاهلية أخرى غير التي سبقت الإسلام وقيل المعني بالمرأة في هذا الصدد هي الأمة لا الحرّة، فقد كانت الأمة تبدي مفاتن جسمها " أمّا الحرائر في الجاهلية، فكانت لهُنَّ كرامة وعِفّة"[10].

([1]) تفسير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ط1، 2001، جـ6، ص164.

([2]) ينظر: صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار الصابوني ، القاهرة ، ط1، 1997، ص216.

([3]) سورة المائدة من الآية 50.

([4]) صفوة التفاسير ص 321.

([5]) تفسير القرطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية القاهرة ، ط2 1964 جـ1 ص456.

([6]) سورة الأحزاب من الآية (33).

([7]) تفسير عبد الرزاق تحقيق محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1419هـ جـ3 ص37.

([8]) تفسير الطبري جـ19 – ص100.

([9]) تفسير الطبري جـ19 - ص100.

([10]) تفسير الشعراوي مطابع أخبار اليوم بدون ط. ت جـ19 ، 12022.

4- قال تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1].

"وكانت حميتهم أنهم لم يُقرّوا أنه رسول الله، ولم يُقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت"[2].

وإذا بلغت الأنفة أن تمنع قبول الحق فتلك حميّة الجاهلية[3].

ولعل المتتبع لهذه الآيات الكريمة يرى أن التنفير في هذه الآيات يكمن في مواقف معيّنة لجعلها في صورة تأنفها النفس المؤمنة، فإذا كانت الجاهلية مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق فإن الإسلام خضوع لله تعالى وطاعة ينبثق منها السلوك القويم والخلق الكريم[4].

زمنها :

لم تجتمع الكلمة في تحديد زمن الجاهلية بل تعددت الأقوال في ذلك فقيل الجاهلية الأولى: " وهي الزمن الذي وُلِدَ فيه إبراهيم عليه السلام، وقيل ما بين آدم ونوح، وهي ثمانمائة سنة، وقيل ما بين نوح وإدريس ، وقيل ما بين نوح وإبراهيم، وقيل ما بين موسى وعيسى، وقيل ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم"[5] وعلى جميع أنبيائه ورسله السّلام وقيل الجاهلية زمن الكفر مطلقاً أو ما بين الرسولين وتطلق على ما كان بين مولد النبي صلى الله عليه وسلّم والبعثة وتطلق على ما قبل فتح مكة[6].

حياة أهل الجاهلية :

والجاهلية المعنية هنا هي تلك التي أشرق عليها فجر الإسلام وحمل أبناؤها بعد إسلامهم مشعل الهداية للإنسانية جمعاء ، فكان لتلك النشأة التي صقلها الإسلام دورٌ بالغٌ للنهوض بهذا التحوّل المهم في تاريخ الإنسانية.

([1]) سورة الفتح من الآية (26).

([2]) تفسير ابن كثير تحقيق محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1419هـ جـ7 ص330.

([3]) ينظر: تفسير الإيجي، محمد بن عبد الرحمن الحسيني، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 2004 جـ4 ص162.

([4]) ينظر تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف دار المعارف ط5 بلا ت ص396.

([5]) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام محمود بن أحمد الرحيلي الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ط1، 2004 جـ2 ص775.

([6]) ينظر خزانة الأدب عبد القادر البغدادي تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة ط4 1997 جـ9 ص213 وينظر الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 20.

ولعل أصدق ما تُعرف به حياتهم بعد ما جاء عنها في التنزيل الحكيم – تلك الأشعار الممحّصة الموثقة ولاسيما إذا أُحسنت قراءتها وخلُصت النوايا لاستنطاقها وتُزُوّدَ بما يعين على مواجهتما.

فقد عبّروا عن تلك الحياة بقرائحهم الصافية ونفوسهم البسيطة وانفعالاتهم المتزنة والمضطربة، واستطاعوا مغالبة شظف العيش عرباً وأعراباً فأنتج كل منهما روائع ونفائس لاتزال حيّة نابضة بالحياة، تشدّ السامعين حسناً وبهاءً ، وإثارة وإعجاباً، رغم مشقة الطريق وبعد الأمد واختلاف الأهواء.

وحيث إن الإيجاز وجهة هذا العمل وأن الحياة الجاهلية لا يحيط بها مثل هذا البحث في كمّه وموضوعه فالمرأة والحرب والغزو والثأر وشظف الحياة والمروءة والوفاء، كل ذلك وغيره مدار الحياة الجاهلية ولعلّ في قصيدة الشنفرى* ،عمرو بن مالك الأزدي[1] ما يختصر الطريق لاطلالة حقيقية على تلك الحياة العربية نراها عن طريق المفضّل الضّبي الذي كان من أفضل من نقلوا عن العصر الجاهلي دقّةً وأمانةً فهو رأس علماء الكوفة في عصره[2]، ثقة أخذ عنه البصريون على الرغم ما بين المدرستين من تنافس واختلاف في منهج الرواية[3].

وفيما أرى أن هذه التأئية كفيلة بنقل صورة تزيل اللبس عن تلك الحياة ولاسيما أنّ صاحبها له قوة تعبيرية" تجعل أسلوبه أسلوباً محكماً لا رخاوة فيه، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التصوير ، والصراحة في النقل عن الحياة"[4].

قال الشنفرى[5] : (من الطويل) :

1	**أَلاَ أمُّ عمروٍ أجمعَتْ فاستقلَّت**	∴	**وما ودَّعت جيرانها إذْ تولَّتِ**
2	**وقد سبقتْنا أمُّ عمرو بأمرها**	∴	**وكانت بأعناق المَطِيّ أظلَّتِ**
3	**بعينيّ ما أمستْ فباتتْ فأصبَحت**	∴	**فقضّت أمُوراً فاستقَلَّتْ فَوَلَّتِ**

* الشنفرى : اختلفت الرواة في اسمه فقيل ثابت وقيل عمرو وقيل الشنفرى اسمه لا لقبه، وأجمعوا على أنه من الأزد، القبيلة القحطانية المعروفة وكان من فتاك العرب وعدائيهم.

([1]) ينظر: خزانة الأدب، جـ9 ص213 وينظر الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 20.

([2]) ينظر: مصادر الشعر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر ط7، 1988 ص 573.

([3]) ينظر: مصادر الشعر الجاهلي ص511.

([4]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف دار المعارف بمصر ط2 1966 ص338.

([5]) المفصليات: المفضل بن محمد الضبيّ، تحقيق وشرح محمد شاكر وعبدالسلام هارون دار المعارف القاهرة ط6 بدون ت ص 108-112 ديوان الشنفرى ص 35-40.

4 فواكَبِدَا على أميمة بعد ما ∴ طَمِعْتُ فَهَبْهَا نِعْمةَ العَيْشِ زَلَّتِ
5 فيا جاريتي وأنت غيرُ مُليمَةٍ ∴ إذا ذُكِرْتُ ولا بذَاتِ تَقلَّـــتِ
6 لقد أَعْجَبَتْنِي لا سَقُوطاً قِنَاعُهَا ∴ إذا مَا مَشَـتْ ولا بذَاتِ تَلَفُّتِ[1]
7 تَبِيتُ بُعيدَ النَّومِ تُهْدِي غَبُوقها ∴ لجارتِهـــا إذا الهديّـــةُ قَلّتِ
8 تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ من اللَّوْمِ بَيْتَها ∴ إذا ما بُيُوتٌ بالمذمَّةِ حُلَّتِ
9 كأنّ لها في الأرض نِسْياً تَقُصُّهُ ∴ على أَمِّها وإنْ تُكَلّمْكَ تَبْلَتِ
10 أُميْمةُ لا يُخْـزِي نثاها حَليلَها ∴ إذ ذُكِرَ النِّسوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتِ[2]
11 إذا هو أمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ ∴ مآبَ السَّعيدِ لم يَسَلْ أيْنَ ظَلَّتِ
12 فَدَقَّتْ وَجَلّتْ واسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ ∴ فلَوْ جُنَّ إنسانٌ من الحُسْنِ جُنَّتِ
13 فبِتْنَا كأن البيتَ حُجِّرَ فَوقَنَا ∴ بِرِيْحَانةٍ ريحَتْ عِشاءً وطلَّتِ
14 بِرَيْحَانةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرتْ ∴ لها أَرَجٌ ما حَوْلَها غيرُ مُسْنِتِ
15 وَبَاضِعَةٍ حُمْرِ الْقِسِيِّ بَعَثْتُهَا ∴ وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ
16 خَرجَنا من الوَادِي الذي بين مشعل ∴ وبين الجَبَا هَيْهاتَ أنشأْتُ سُرْبَتِي
17 أُمشِّي على الأرضِ التي لن تضُرّني ∴ لِأَنْكِيَ قوماً أو أُصَادفَ حُمَيَّتَي
18 أُمشِّي على أَيْنِ الغزاةِ وبُعْدها ∴ ليُقرِّبُني منها رواحِي وغُدْوَتِي
19 وأُمُّ عِيَالٍ قد شَهِدتُ تَقُوتُهُمْ ∴ إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وأَقَلَّتِ
20 تَخَافُ عَلَيْنَا العَيْل إنْ هي أكثرتْ ∴ ونَحْنُ جِيَاعٌ أيَّ آلٍ تَأَلّتِ[3]
21 وما إنْ بها ضِنٌّ بما في وِعَائِها ∴ ولكنَّها مِن خِيفَةِ الجُوعِ أَبْقَتِ
22 مُصَعْلِكَةٍ لا يَقْصُرُ السِّتْرُ دونَها ∴ ولاَ تُرْتَجَى لِلَبْيْتِ إن لم تُبيّتِ
23 لها وقضةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً ∴ إذا آنَسَتْ أُولَى العَدِيّ أقشعَرَّتِ
24 وتأتِي العَدِيَّ بارِزاً نِصْفُ سَاقِها ∴ تَجُولُ كعَيْرِ العَانةِ المُتَلَفِّتِ
25 إذَا فَزِعوا طارتْ بأبيضَ صارمٍ ∴ ورامتْ بِما في جَفْرِها ثُمَّ سَلَّتِ

([1]) لا سقوطاً قناعها: أي لا يسقط قناعها لشدّة حيائها.

([2]) النثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ.

([3]) العيل : الفقر.

26 حُسامٍ كلَونِ المِلْح صافٍ حَدِيدُهُ ∴ جُرَازٍ كَأَقْطَاعِ الغَدِيرِ المُنعَّتِ
27 تَرَاها كأَذْنابِ الحَسِيل صَوَدِراً ∴ وقد نَهِلَتْ مِنَ الدِّمَـاءِ وَعَلَّتِ
28 قَتَلْنَا قَتِيلاً مُهْدِياً بِمُلَبَّدٍ ∴ جَمَارَ مِنىً وَسْطَ الحَجِيجَ المصَوَّتِ[1]
29 جَزَيْنَا سَلاَمَانَ بن مُفرِجَ قَرْضَها ∴ بما قَدَّمَتْ أيديهِمُ وأزَلَّتِ
30 وهُيِّء بِي قومٌ وما إنْ هَنَأْتُهُمْ ∴ وأصبحتُ فِي قومٍ ولَيْسوا بِمُنْيتِي
31 شَفينَا بعبد اللهِ بَعْضَ غَليلنا ∴ وَعَوْفٍ لَدَى المَعْدَى أَوَانَ اسْتَهَلتِ
32 إذا ما أَتَتْنِي مَيتَتِي لم أُبالِهَا ∴ ولم تُذْرِ خَالاتِي الدُّمُوع وعَمَّتِي
33 وَلَوْ لَمْ أَرِمْ فِي أَهْلِ بيْتِي قاعداً ∴ إذَنْ جاءَنِي بينَ العمودَيْنِ حُمَّتِي
34 أَلاَ لا تَّعُدْنِي إنْ تَشَكَّيْتُ خلتي ∴ شفاني بأعْلَى ذِي البُرَيْقيْنِ غَدْوَتِي
35 وإنِّي لَحُلْوٌ إنْ أُرِيدَتْ حَلاَوَتِي ∴ ومُرٌّ إذَا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمرَّتِ
36 أَبِيٌّ لِمَا آبى سَرِيعٌ مَباءَتِي ∴ إلى كلِّ نَفَسٍ تَنْتَحِي في مسرتي

وحيث إن البحث غير معني بشرح هذه القصيدة فإن الوقوف على تلك الومضات يعين على معرفة الكثير عن تلك الحيَاة الجاهلية، ولا يخفى على دارسي هذا الأدب أنّ القصائد القديمة لها خصائصها، فعندما تكون قصاراً يغلب عليها الطابع التقريري الذي يعبر عن أشجان صادقة قريبة من سامعها، أمّا إذا كانت طوالاً فإنها في الغالب تحتاج إلى إعمال العقل لسبر أغوارها والوصول إلى أبعادها ومراميها[2] وإن كان "الطابع العام في الشعر الجاهلي، تعبير مباشر عن حياتهم يستمدون صورهم ومعانيهم من بيئتهم بأساليب رائعة فيها جمال الفطرة وبساطة الصحراء"[3].

ولعل الناظر في هذه القصيدة المختارة يحتاج إلى شيء من التأمل ومعاودة قراءتها لتمييزها، أهي من القصار؟ أم الطوال؟ وكذلك الأمر في كونها قريبة المعنى أم من ذوات المعنى البعيد وعلى كلٍ فإن المعاني القريبة في الشعر العربي إذا لم تكن المعنية عند الشاعر فإنها السبيل للوصول إلى تلك المعاني البعيدة فلا

(1) أول من رمى الجمار إبراهيم عليه السلام ثم أذن في الناس بالحج فأُجيب. ينظر تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، محمد بن الضياء تحقيق علاء إبراهيم، أيمن نصر دار الكتب العلمية بيروت ط2 ، 2004 ص49.

(2) ينظر الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص145.

(3) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 126.

شيء في القصيدة يُطلق جُزافاً، وإنما هي مُحكمة في ألفاظها ومعانيها وتراكيبها ولاسيما تلك القصائد التي غالبت الأزمنة والأمكنة فكانت نتاجاً إنسانياً مخلّداً .

ولعل مما يشدّ المتأملين في تلك القصيدة تكرار الكنية (أم عمرو) فقد ذكرها الشاعر في البيت الأول والبيت الثاني وقد استعمل العرب الكنية في حديثهم وهي وقف على العرب الأحرار ولا يخاطب بها الأرقاء والموالي، وهي في هذا السياق ملمح من ملامح الاحترام والتقدير[1] وهذه النظرة إلى المرأة لم تكن نشازاً فالمرأة لم تكن ذليلة مهانة دائماً كما يتصورها بعض الكتّاب[2] فقد كانت المرأة الحرّة تأنف الضيم ولاسيما الشريفات منهن ويتركن الأزواج إذا لم يحسنوا معاملتهن[3].

وقد أنف معظم العرب الظلم ولاسيما أصحاب الشرف والرفعة ولهذا فقد اقترن بالسفلة والسوقة دون الأشراف والسّادة وكرام الناس[4]، وعندما ننظر إلى البيت الخامس فإننا نلحظ خصلة حميدة وهي الإشادة بالجار والثناء عليه، كما يطالعنا البيت السادس بمكانة التعفف بين الجاهليين (لا سقوطاً قناعها) (ولا بذات تلفُّت) فلا يُعرف على الحرائر إلا العفَّة والشرف أمّا الإماء فمنهن القيان ومنهن المتخذات أخداناً ومنهن جوارٍ يخدمن الشريفات[5].

ويعاود الشاعر في البيت السابع الحديث عن الجار والتهادي بين الجيران وفي البيت الثامن إلى البيت الحادي عشر يشيد الشاعر بالوفاء وحسن العشرة ويتراءى لنا في الأبيات من التاسع عشر إلى الثاني والعشرين حسن التدبير والإعانة على شظف العيش، وهي إذا اشتدت الأمور وادلهمت الخطوب تمترست وكانت العصيّة على الأعداء.

وفي حديث الشاعر عن الثأر والغزو ما يبين عن تلك الحياة في هذا الجانب فهو في البيت الخامس عشر يذكر أنَّ من يغزُ يغنم مرّة ويشَمَّتِ (والتشمت أن يرجعوا خائبين).[6] فهو بهذا البيت يكشف عن حقيقة يُراد بها التنفير من الغزو، لأن صاحبه لا يجني إلا الخيبة، والوصول إلى مثل هذه الأشياء دليل على تلك اليقظة المستلهمة من معترك الحياة.

([1]) ينظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ط، ت ج2 ص849.

([2]) ينظر في أدب ما قبل الإسلام د. محمد عثمان علي دار الأوزاعي ط2 ، 1983 ص47.

([3]) ينظر المجتمع العربي القديم، محمد الخطيب ، دار علاء الدين دمشق ط1، 2005 ص81.

([4]) ينظر: مجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد 17، 2000 ص304.

([5]) ينظر: المجتمع العربي القديم ص 81.

([6]) لسان العرب مادة (شمت).

وأنّه يجازي الأعداء بما قدّمت أيديهم وأزلت، ويشفي غليل النفس من أعدائه بقتلهم وهذا في الأبيات من التاسع والعشرين إلى الواحد والثلاثين ويختتم هذه القصيدة بما يعرف من الخصال الحميدة في زمنه فهو يفتخر بأنه وفيٌّ للخليل وأنه حلو لمن أراد حلاوته ومرّ على أعدائه وأنه أبيٌّ فيما يستوجب الإباء وأنه من ذوي النفوس العالية التي تتحول عن الشدّة والبطش بتحول الآخر عن ظلمه وعداوته.

وبعد هذه اللمحة عن الحياة الجاهلية وما فيها من جوانب إنسانية نصل إلى زيد بن عمرو بن نفيل – النموذج في هذا البحث – لتلمس اليقظة العقلية في زمن الجاهلية.

زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، القرشي العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم يدرك الإسلام وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها وذهب إلى الشام باحثاً عن عبادات تروق للنفس ويقبلها العقل فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم عليه السلام[1].

وزيد بن عمرو بن نفيل معاصر للرسول صلى الله عليه وسلّم قبل بعثته و" أنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم لقي زيدَ بن عمرو بن نُفيل بأسفل بَلْدَحٍ، قبل أن ينزل على النبي صلى الله وسلّم الوحي، فقُدِّمتْ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم سُفْرَةٌ فأبي أن يأكل مِنها، ثم قال زيدٌ: إني لستُ آكل مِمَّا تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأَنّ زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاةُ خلَقَها الله، وأنزل لها من السماءِ الماءَ، وأنبتَ لها من الأرض، ثُم تذبحونها على غير اسم الله، إنكاراً لذلك وإعظاماً له"[2].

ولعل أبرز ملامح اليقظة العقلية يكمن في النظر إلى المعتقدات، فأصحاب الأحلام الصغيرة تستكين عقولهم إلى ما يخالف الحق وتطمئن قلوبهم إلى الزيغ ويعيشون في أسر الأوهام، أمّا عندما تكبر الأحلام وتنشأ الإرادة في كيان سليم فإن العقل آن ذاك لا يقف أمامه حائل يحول بينه وبين الحق، ويتراءى ذلك في قول زيد بن عمرو بن نفيل من [الوافر] :

(1) ينظر: الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين ط 15 ، 2002م ج3 ص60.

(2) صحيح البخاري ج5 ص40.

تَرَكْتُ اللاّت والعُزَّى جميعـــاً ∴ كذلك يَفْعلُ الجَلِدُ الصَّبُـــورُ
فلا العُزَّى أَدِينُ وَلا ابنتيها ∴ ولا صنمي بني غنمٍ أَزُورُ
ولا هُبَلا أزورُ وكان ربًّا ∴ لنا في الدهر إذْ حِلمي صَغِيرُ[1]

إنّ اعتداد زيد بن نفيل بعقله واضح في هذه الأبيات ولاسيما بعد علمنا أنّه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ورغم بحثه عن ديانة خالصة لله فقد " خرج إلى الشام هو وورقة ابن نوفل وعثمان الحويرث وعُبيد الله بن جحش، فتنصروا إلا زيداً فإنه لم يدخُل في شيء من الأديان"[2] ولعله من الواضح أن ذاك البحث عن الدين الحق هو أهم المؤشرات التي تشير إلى تلك اليقظة العقلية فلولا هاتف العقل لركن كل هؤلاء إلى ما وجدوا عليه أباءهم وأجدادهم وممّا تبرز فيه اليقظة العقلية عند زيد بن عمرو بن نفيل قوله من الوافر:

عَزلْتُ الجِنَّ والجنَّان عَنّي ∴ كذلِكَ يفعَلُ الجَلدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أَدِينُ ولا ابنتيها ∴ ولا أُطُمَ بنِي طَسْمٍ أَدِيرُ
وَلاَ غَنَماً أَدِينُ وكانَ رَبًّا ∴ لنا في الدَّهر إذ حِلْمي صغيرُ
أَرَبًّا واحِداً أَمْ ألفَ رَبٍّ ∴ أَدِينُ إذَا تَقسّمتِ الأُمُورُ
ألَـمْ تَعْلَـــم بأن الله أَفْنَى ∴ رجَالاً كان شأنُهُم الفجورُ
وأبقَى آخرين بِبِرّ قَوْمٍ ∴ فيربُلُ مِنْهُمُ الطِّفْلُ الصغيرُ
وأوشَكَ أَنْ يعيشَ المرءُ يوماً ∴ كما يَتَرَوّح الغُصْنُ النّضِيرُ[3]

لا يُخفى افتخار زيد بن عمرو بن نفيل بجرأته وركونه إلى العقل ونبذه ما تآلف الناسُ عنه في تلك الفترة ، فالجرأة على المعتقدات الفاسدة المتأصلة في النفوس لا يطيقها إلا الجلد الصبور.

والشاعر هنا يقيم الحجّة الواضحة القوية، بأنَّ الأمور لا تنضبط إلا بربٍّ واحدٍ يكون الملجأ إليه إذا تقسّمت الأمور ويبين عن حقيقة أنَّ الله يُفني من كان شأنهم الفجور فلا يبقي لهم أثراً حسناً ولا ذكراً طيباً، وفي المقابل أنّ الله يُبقي أصحاب البرّ فيكونون سبباً لبقاء المعدوم والمعوز من غير القادرين على

(1) كتاب الأصنام، أبو المنذر الكلبي تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة ط4، 2000 ص253.
(2) السيرة النبوية، ابن كثير تحقيق مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة بيروت بدون ط 1976 ص164.
(3) الآحاد والمثاني، أبوبكر بن أبي عاصم ، تحقيق باسم الجوابرة دار الراية ، الرياض ، ط1، 1991 ج2 ص76 ودلائل النبوة إسماعيل الأصبهاني تحقيق محمد الحداد، دار طيبة ، الرياض ط1، 1409هـ ص80.

الكسب، فيربل بعطائهم الطفل الصغير فيصير مكتنزاً قد ظهرت عليه نعمة المنعمين، وبذلك يربل القوم نمواً وكثرةً وعدداً[1].

وتتجلى نشوة الشاعر في بيته الأخير حيث يُعرب عن اعتزازه بما وصل إليه من ثبات ويقين مستخدماً التصوير لجلاء ما يجيش في نفسه، فذاك الغصن النضير الذي يتروّح ويتمايل وفق وجهة الرياح لا قدرة له على مقاومتها، فهو طوع لتصاريفها لا إرادة له ولا كيان، هي الصورة المقابلة لثبات الشاعر ورفضه لما لا يروق لنفسه العزيزة فهو أبيٌّ لما يأبي من الأمور ولو كان عليها الأباعد والأقربون.

وأغلب الظن عندي أن كثيراً من ضعفاء تلك الحقبة يدركون ما وصل إليه زيد بن عمرو بن نفيل من يقظة عقلية، ولكنهم لا يطيقون سطوة كبرائهم وتجبرهم، فأغلب من ناصر الحق عند بزوغ فجر الإسلام هم الضعفاء والمغبونون الذين لا يستطيعون المجاهرة برفض ما كان منافياً للعقل والفطرة السليمة في الفترة الجاهلية، أمّا زيد بن عمرو بن نفيل فقد جاهر بذلك إبّان سطوة المشركين في الجاهلية وسفّه عبادتهم فأوذي حتى أُكْره على ترك مكّة والنزول بـ " حداء" ووُكّلَ به شبابٌ من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم لمنعه من دخول مكة والاتصال بأهلها مخافة أن يفسد عليهم دينهم فاضطر زيد إلى المعيشة في هذا المحل معتزلاً قومه[2].

ولم تشفع له تلك الأعمال النبيلة حيث كان لا يعلم بفتاة يريدون وأدها إلا قصد أباها، ودفع له مؤونتها، أو يتولى تربيتها حتى تكبر فيعرض على أبيها أن يأخذها فإن رفض زوّجها برجل هو كفؤ لها[3]. ويقال إنه أحيا ستا وتسعين موءودة[4].

ومما أُنشد لزيد بن عمر بن نفيل من الوافر :

إذا كان الخطاء أقل ضرا ∴ وأنفع في الخطوب من الصواب
وكان النوك يلحق بالثريا ∴ وكان العقل يُدفن في التراب
وعُطّلت المكارمُ والمعالي ∴ وأُغلق دون ذلك كل باب
وأُقصي كلُ ذي حسب ودين ∴ وقُرّب كُل مهتوك الحجاب
وولّي بعضهم حربا وخرجا ∴ وولّي بعضهم فصل الخطاب
فما أحد أظن بما لديه ∴ من المتحرج المحض اللّباب[5]

([1]) ينظر: لسان العرب مادة (ربل).

([2]) ينظر: تاريخ الفكر الديني ، محمد الفيومي ، دار الفكر العربي ط4 ، 1994، ص364.

([3]) ينظر: معجم الشعراء الجاهلين، عزيزة قوال بابيتي دار صادر بيروت ط1 1988 ص160.

([4]) ينظر: قصة الأدب في المجاز بعد الله عبد الجبار، محمد خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية بدون ط ت ص171.

([5]) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري مؤسسة الأعلمي بيروت ط1، 1412 هـ ج1 ص453.

وأغلب الظن عندي أن هذه الأبيات متأخرة عن زمن زيد بن عمرو بن نفيل، فألفاظها أقرب إلى ألفاظ العصر العباسي أو الأموي، ولعلّ قائلها أراد النجاة من سطوة من بيدهم الأمر في ذاك الزمان، فهو متضجّر من زمانه ذاكراً ما عليه من فساد، أما في اختيار نسبتها إلى زيد بن عمرو فلعله مدرك لأنفته ورجاحة عقله وانتفاضة على الباطل.

وقد نسبت إليه أبيات أخرى ووصف بأنّه مُسْلِمُ الجاهلية[1] ومن تلك الأبيات قوله في (المتقارب) :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت ∴ له الأرضُ تحمل صخراً ثقالاً

دحاها فلما استوت شـــــدَّها ∴ جميعاً وأَرسى عليها الجبالا[2]

وظن بعض الدراسين أن زيد بن عمرو بن نفيل عاش بعد البعثة واعتنق الإسلام، ولكنَّ الأمر على غير ذلك (قال ابن إسحاق: وحُدثتُ أن ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمر بن الخطاب، وهو ابن عمه، قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: أتستغفر لزيد بن عمرو؟ قال " نعم ، فإنه يُبعثُ أُمَّةً وحده"[3].

فقد توفي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم بخمس سنين وكانت قريش آن ذاك تبني الكعبة وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : يبعث أُمَة وحده[4].

إنّ حقبة زمنية يستغفر الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض أبنائها ونعجب اليوم بالجميل من أفعالها ويتراءى لنا في أشعارهم مروءة وشهامة وكرماً، تستحق من الدارسين العناء لإزالة ما علق بها من تشويه وتشويش وإنْ كنَّا على يقين بأنها إذا ما قورنت بزمن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام فإن البون شاسع وإن الفرق كبير.

ومع ذلك فإن تلك الأوصاف التي توصف بها تلك الحقبة وذلك الازدراء الذي ترمق به يجعلنا نوافق الدكتور يحيى الجبوري في قوله : " حتى غدت صورة الجاهلية في الأذهان صفة للجهل والجور والبدائية، ولا شك أن ثمة كثيراً من الدوافع أملت على الناس أن يفسروا الجاهلية هذا التفسير، ومن ذلك العصبية الدينية والعصبية العرقية"[5].

([1]) ينظر: الجموع البهية للعقيدة السلفية للشنقيطي مكتبة ابن عباس ، مصر ط1 ، 2005 ص16.

([2]) السابق ص16.

([3]) السيرة النبوية ، ابن هشام تحقيق طه عبد الرؤوف سعد – شركة الطباعة الفنية المتحدة بدون ط ت ج1 ص208.

([4]) ينظر: مسند أبي يعلى تحقيق حسين سليم أسد ، دار المأمون، دمشق ط1، 1984 جـ13 ص170. وينظر المستدرك على الصحيحين أبوعبد الله الحاكم محمد النيسابوري تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت ط1 1990 جـ3 ص496.

([5]) الشعر الجاهلية خصائصه وفنونه ص17.

الخاتمة

وبعد هذه الوقفات على تلك الفترة الزمنية، وتلمّس اليقظة العقلية في ثنايا عصر الجاهلية، نخلص إلى ما يأتي :

1. إن فترة الجاهلية وما فيها من شطط ينبغي على الدارس ألاّ ينظر إليها بمنظار ما جاء بعدها من هداية ورشد، بل ينظر إليها فترة ذات تجارب إنسانية يمكن أن نجد فيها ما يروق للنفس أو يحرك الوجدان أو تعلو به الهمم.
2. إنَّ الوقوف على أشعار بعض الجاهليين والنظر إليها بموضوعية يطالعنا بنفائس ومُثل إنسانية لا نبالغ إذا قلنا أننا في أمسّ الحاجة إليها في زمننا الحالي .
3. إنَّ تلك الفترة الجاهلية على الرغم مـــا فيهـــا من الحرص على عبادة الأوثان فإن عقولاً نبذت تلك العبادة وأزدرتها وسعت إلى الوصول إلى ما يقبله العقل وتألفه النفس فهي تستحق الدراسة والعناء .
4. إنَّ رجلاً جاهلياً هو زيد بن عمرو بن نفيل لخير مثال لتحرر العقل ونفاذ البصيرة والصبر على الأذى في سبيل الوصول إلى إرضاء النفس وبلوغ الغاية.
5. إنّ النظر إلى الفترة التي سبقت الإسلام بعين فاحصة متأملة يرينا يقظة عقلية من خلال الرقي الاجتماعي والتطلّع الديني.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

1. الآحاد والمثاني، أبوبكر بن أبي عاصم ، تحقيق باسم الجوابرة دار الراية ، الرياض ، ط1، 1991م.
2. أدب ما قبل الإسلام، محمد عثمان علي دار الأوزاغي ط2 1983م .
3. الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين ط15، 2002م
4. تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف دار المعارف ط5 (د.ت) .
5. تاريخ الفكر الديني محمد الفيومي، دار الفكر العربي، ط4، 1994م.
6. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، محمد بن الضياء تحقيق علاء إبراهيم أيمن دار الكتب العلمية بيروت ط2 ، 2004م.
7. تفسير الإيجي، محمد بن عبد الرحمن الحسيني، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2004م .
8. تفسير الشعراوي مطابع أخبار اليوم (د.ط.ت).
9. تفسير الطبري تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، 2001م .
10. تفسير عبد الرزاق تحقيق محمود محمد عبدة دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1419م .
11. تفسير القرطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط2، 1964م.
12. تفسير ابن كثير تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت ط1 ، 1419هـ .
13. الجموع البهية للعقيدة السلفية للشنقيطي، مكتبة ابن العباس، مصر، ط1، 2005م.
14. الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد الحوفي، نهضة مصر القاهرة، (د.ط.ت).
15. خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4، 1997م.
16. دلائل النبوة، إسماعيل الأصبهاني تحقيق محمد محمد الحداد، دار طيبة الرياض ط1 ، 1409هـ.
17. ديوان الشنفرى، طلال حرب، دار صادر بيروت ، ط2، 2007م .
18. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري، مؤسسة الأعلمي بيروت ط1، 1412هـ .
19. السيرة النبوية، ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة بيروت (د.ط.ت).
20. السيرة النبوية ابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، (د.ط.ت).
21. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف دار المعارف بمصر ط2، 1966م .
22. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحي الجبوري جامعة قاريونس بنغازي ط6، 1993.

23. الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر (د.ط.ت).
24. صحيح البخاري تحقيق محمد الناصر، دار طوق النجاة ط1، 1422هـ.
25. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني القاهرة، ط1، 1997م.
26. العمدة ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت ط4، 1972م.
27. قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار، محمد خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية (د.ت).
28. كتاب الأصنام، أبو المنذر الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط4 ، 2000م.
29. لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر بيروت لبنان ط3 ، 1994م.
30. المجتمع العربي القديم محمد الخطيب، دار علاء الدين، دمشق ط1، 2005.
31. مجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد السابع عشر، 2000م.
32. مجلة اللسان المبين كلية الآداب جامعة طرابلس، العدد السابع، 2012م.
33. المستدرك على الصحيحين، أبوعبد الله الحاكم محمود النيسابوري تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1990م.
34. مسند أبي يعلى تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون، دمشق ط1، 1984م.
35. مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد دار المعارف بمصر ط7، 1988م .
36. معجم الشعراء الجاهليين فوال بابيتي دار صادر بيروت ط 1، 1998م.
37. المفضليات، المفضل بن محمد الضّبّي، تحقيق وشرح محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة ، ط6 (د.ط.ت).
38. منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، محمود بن أحمد الرحيلي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ط1 ، 2004م.